د.مباركية عيسى
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربي

المقياس: قضايا نقدية
التخصص: أدب حديث ومعاصر ـ ماستر
المستوى: ثانية ماستر، السداسي 3

المحاضرة رقم 03:

عنوان المحاضرة: قضية التراث النقدي

تسعى هذه المحاضرة إلى إبراز مفاهيم التراث، كما تضمنت أيضا مفاهيم التراث النقدي، لنص بعدها للحديث عن تلقي النص التراثي والإرهاصات الأولى لفكرة التلقي.

1- مفهوم التراث:

يعد التراث من أهم المفاهيم، والقضايا التي شغل بها الفكر العربي الحديث والمعاصر منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وما يزال النقاش حول التراث مستمرا إلى يومنا هذا، من خلال طرح مفاهيمه ومصطلحاته الإجرائية ورصد قضاياه الفكرية والمنهجية وإبراز إشكالياته العويصة رؤية وموضوعا.

فالتراث تعددت تعاريفه من ناقد إلى آخر، فهناك من يعرفه: " كل ما خلفته الأمة من إرث ديني وثقافي وأدبي وفلكلوري وعلمي وحضاري، و أصل الكلمة مأخوذ من فعل "ورث" بإبدال الواو تاء، فالتراث بالمفهوم الحديث المتداول هو كل ما وصل إلينا مكتوبا في علم من العلوم أو محسوسا في فن من الفنون مما أنتجه الفكر والعمل في التاريخ الإنساني عبر العصور، فكل أمة إذن تراثها الذي هو ثمرة فكرها وعقائدها وحصيلة جهدها العقلي والروحي والإبداعي".

ويعرف أيضا بأنه: " ليس صناعة فرد واحد بل إن أجيالا عديدة صنعته، وشكلته، وصاغته الصياغة التي وافقت منطلقاتها الفكرية والوجدانية والعلمية والثقافية، وأن هذا التراث لم يعد ذا وجه واحد، في حالة إضافته للفرد، ولكنه أصبح ذا وجوه متعددة بتعدد المنطلقات التي وقفت وراء صياغته".

ويعرفه "جابر عصفور" بأنه: "كل ما ورثناه تاريخيا عن أسلافنا الذين هم الأمة البشرية التي نحن امتداد طبيعي لها، فالتراث ميراث إنساني لجهد بشري خلفه الذين أورثونا إياه".

وعرف أيضا بأنه: "نتاج بشري يعبر عن كينونة الذات ضمن شروط تاريخية أسهمت في تشكيل خصوصيات الأفراد الذين أنجزوا بفعل الإبداع رؤيتهم الخاصة للوجود، وهو إن كان ثابتا لدى منتجيه، فهو متحول في الأزمنة والعصور..."

2 ــ مفهوم التراث النقدي العربي وأهم قضاياه:

ليس من السهل على أي باحث في النقد العربي أن يضع تعريفا شاملا جامعا كافيا لما اصطلح عليه بـــ " التراث النقدي"، ذلك لأن هذا المصطلح هو جزء من الكل، هذا الكل الذي يمثل "التراث" العربي برمته، فهو بمثابة الوعاء الحاضن للفكر والمعرفة والثقافات العربية على مر العصور.

وفي هذا الصدد نجد "حسن مخافي" صاحب كتاب (المفهوم والمنهج في القراءات العربية المعاصرة للتراث النقدي) يرى بأنه: "نمط خاص ومميز من التراث له ثقله المعرفي والوجداني والإيديولوجي".

في حين نجد بعض الباحثين يعرفونه على أنه: "ذلك الزخم الفكري والمعرفي الذي تركه المتقدمون من نقاد وبلاغيين حول القضايا النقدية، التي تمثل أهم المسائل التي عرفها الأدب والنقد العربيين، فألفت فيها كتب ومصنفات سعى من خلالها النقاد القدامى الإجابة على العديد من الأسئلة التي شغلت الفكر العربي القديم".

ومن أهم القضايا النقدية التي شغلت النقاد العرب من نهاية القرن الثاني للهجرة لغاية نهاية القرن الثامن هجري نجد: قضية اللفظ والمعنى، قضية القديم والجديد، قضية الصدق والكذب، قضية السرقات الشعرية، قضية الطبع والتكلف... وهي من القضايا التي شغلت بال النقاد القدامى كثيرا، حتى أننا نكاد نجزم أنه لا يكاد يخلو كتاب في النقد الأدبي منها، ولا ناقد إلا وأدلى بدلوه فيها، فهذه القضايا تضمنتها العديد من مصنفات النقاد، أمثال: عبد القاهر الجرجاني، ابن طباطبا، قدامة بن جعفر، الجاحظ وغيرهم، وقد شكلت مادة دسمة لهم، سعوا للبحث فيها ولدراستها وتوطين آرائهم حولها التي وصلت إلينا وشكلت لنا تراثا نقديا نسعى لقراءته ومقاربته.

3 ــ تلقي النص التراثي والإرهاصات الأولى لفكرة التلقي:

كثر الحديث في الأوساط النقدية عن المتلقي بتحديد ماهيته، وإبراز مكانته في العملية الإبداعية، بل أصبح بؤرة اهتمام كل من رفع الحداثة شعارا والتجديد عنوانا فيسميه متلقيا تارة، وقارئا تارة أخرى، ومستقبلا تارة ثالثة، وهذا ما جعلنا نتساءل حول مكانته في تراثنا النقدي العربي، ومدى اهتمام نقادنا القدامى به.

ــ بدأ النقد العربي يتعامل مع التلقي، باعتباره ظاهرة ملازمة لعملية الإبداع والنقد منذ الإرهاصات الأولى التي تشكلت عندها العملية النقدية، فإذا كان نقد النصوص مرافقا للشعر فإن المتلقي مرافق للاثنين، وتاريخ النقد وتاريخ الشعر يرافقهما تاريخ التلقي، وهذا ما أقره وسيقره أهل الدراية من الأدباء والنقاد القدامى منهم والمحدثين.

ــ لقد "اعتنى النقد العربي القديم بالمتلقي سامعا وقارئا، وبلغت هذه العناية أوجها في عصور ازدهار النقد، وظهور المصنفات النقدية وتأثر النقد بالعقول المعرفية المجاورة مثل اللغة والكلام والفلسفة، وبلغت هذه العناية حدا يدفعنا إلى القول أن النقد العربي وضع المتلقي في منزلة مهمة من منازل الأدب، وقصده بخطابه النقدي قصدا، وحث على أن يكون شعرهم متوجها إليه"

ــ إن نقادنا الأوائل وقفوا على عناصر العملية الإبداعية، بنوع من العناية الخاصة، من خلال تبيين دور كل طرف في عملية التواصل، والتلاقي بين المبدع والمتلقي عن طريق النص الشعري في علاقة حوارية متواصلة.

ــ إن المتفحص والمتمعن في التراث النقدي في القرون المختلفة للحياة العربية، يلاحظ جملة من المفاهيم النقدية والإجراءات القرائية، التي تدل دلالة واضحة على سهر وحرص المتلقي على نجاح التجربة الشعرية، واستمرارها من خلال المحافظة على المقومات الأساسية للقصيدة العربية.

ــ يقول الحطيئة: " خير الشعر الحولي المحكك" ، إن مسألة تنقيح الشعر وتفكيكه، يعد في ذاته نوعا من مراعاة أحوال المتلقي في عملية القراءة قصد الحصول على التجاوب

والإستقبال الجيد من طرف المتلقي أثناء معاينته للشعر ومساهمته في إنتاجية النص مع المبدع أو الشاعر.

ــ من جهة أخرى نجد "أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ" قد أشار إلى دور المتلقي في توجيه العمل الأدبي، ويبين السبب والدافع في ذيوع الفصيدة وانتشارها، وذلك حين قال: "فإن أردت أن تتكلف هذه الصناعة ، وتنسب إلى هذا الأدب ، فقرضت قصيدة، أو حبرت خطبة، أو ألفت رسالة، فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك، أو يدعوك عجبك بثمرة عقلك أن تنتحله وتدعيه، ولكن أعرضه على العلماء، عرض رسائل أو أشعار أو خطب، فإذا رأيت الأسماع تصغي له والعيون تحدج إليه، ورأيت من يطلبه، ويستحسنه، فانتحله.. فإذا عاودت أمثال ذلك مرارا وتكرارا، وجدت الأسماع عنه منصرفة والقلوب لاهية، فخذ في غير هذه الصناعة، واجعل رائدك الذي لا يكذبك حرصهم عليه، أو زهدهم فيه،

قال الشاعر: إن الحديث تغُرُ القوم حلوته *** حتى يُلم بهم عي وإكثار

إذ يتضح لنا من قول الجاحظ أن المعول عليه في استقبال النص، هو استحسان السامع أو انصرافه عنه، وأن الأديب لا يُعجب بثمرة عقله، أو ثقته بنفسه فيما تجود به قريحته بل عليه أن يجعل حرص الجمهور على ما يقول.

ــ كما يجدر بنا أن لا نغفل في هذا الصدد عن تلك الرؤى التي بينها كل من (ابن حزم، عبد القاهر الجرجاني، بشر بن المعتمر، ابن طباطبا وغيرهم)، تجاه المتلقي الذي يعد بحق أحد أقطاب العملية الإبداعية.

مراجع ومصادر المحاضرة:

ــ محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية المعاصرة.

ــ أحمد يوسف: وميض الفكر.

ــ هاجر تقية، مبروك دريدي: قراءات التراث النقدي العربي في ظل مقاربات النقد الحواري، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد 9، عدد 3، 2020.

ــ محمد المبارك: استقبال النص عند العرب.

ــ الجاحظ أبو عثمان بن بحر: البيان والتبيين.